

## سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَثَلَّثَ وَرَبِّعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قال سفيان الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتهما أي بدأتها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي بديع السموات والأرض . وقال الضحاك : كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض ، فهو خالق السموات والأرض . وقوله تعالى : ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿أولي أجنحة﴾ أي يطرون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال جل وعلا ﴿يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ قال السدي : يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ يعني حسن الصوت ، رواه عن الزهري البخاري في الأدب ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، وقرئ في الشاذ ﴿يزيد في الخلق﴾ بالخاء المعجمة ، والله أعلم .

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾

يغير تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع . قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر عن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال : إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ ، فدعاني المغيرة فكتبت إليه : إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وسمعتني عن قيل وقال : وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وأخرجاه من طرق عن وراد به . وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول وسمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ ولها نظائر كثيرة . وقال الإمام مالك رحمه الله عليه : كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية ﴿وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ ورواه ابن أبي حاتم عن يونس عن ابن وهب عنه .

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرًا نِعِمَّتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنُوا تَوْفُكُونَ ﴿٣﴾

بينه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيدهم في أفراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ولهذا قال تعالى : ﴿لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾ أي

فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ، والله أعلم .

وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا  
وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركون بالله وبخالقك فيما جتتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالقوهم ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء ثم قال تعالى : ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأولياته وأتباع رسله من الخير العظيم ، فلا تلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وهو الشيطان ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، أي لا يفتنكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفاك ، وهذه الآية كالأية التي في آخر لقمان ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ وقال مالك عن زيد بن أسلم هو الشيطان ، كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب يتادونهم ألم تكن معهم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدو﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة وخالقوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان وأن يرزقنا اتباع كتاب الله ، والافتقاء بطريق رسله ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، وهذه كقولته تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا  
فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ، لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿وأجر كبير﴾ على ما عملوه من خير . ثم قال تعالى : ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالا سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويعسبون أنهم يحسنون صنعا ، أي أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ، لا حيلة لك فيه ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي لا تأسف على ذلك ، فإن الله حكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي ، لما له في ذلك الحجة البالغة والعلم التام ، ولهذا قال تعالى : ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾ .

وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عوف الحمصي ، حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني أوريعة عن عبد الله بن الديلمي قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول الله ﴿إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ومن أخطاه منه ضل ، فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله عز وجل﴾ ثم قال : حدثنا محمد بن عبدة القزويني ، حدثنا حسان بن حسان البصري ، حدثنا إبراهيم بن بشر ، حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا إبراهيم القرشي عن سعيد بن شرجيل عن زيد بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : خرج

علينا رسول الله ﷺ فقال «الحمد لله الذي يهدي من الضلالة ، ويلبس الضلالة على من أحب» وهذا أيضاً حديث غريب جداً .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِسُ حَبَابًا فَتُسْقِنُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ

مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُسْوَرُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في أول سورة الحج يبين عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فإن الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ اهترت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً ، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحية في الأرض ولهذا جاء في الصحيح «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب» ولهذا قال تعالى : ﴿كذلك النشور﴾ وتقدم في الحج حديث أبي رزين قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ «يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك محلاً ثم مررت به بهتر خضراً» قلت : بلى ، قال ﷺ «فكذلك يحيي الله الموتى» .

وقوله تعالى : ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي من كان يجب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليزج طاعة الله تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً ، كما قوله تعالى : ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ وقال عز وجل ﴿ولا يجزئك قوهم ، إن العزة لله جميعاً﴾ وقال جل جلاله ﴿والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ قال مجاهد ﴿من كان يريد العزة﴾ بعبادة الأوثان ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ وقال قتادة ﴿من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ أي فليتعزز بطاعة الله عز وجل ، وقيل من كان يريد علم العزة لمن هي ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ وحكاها ابن جرير .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء ؛ قاله غير واحد من السلف . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، أخبرني جعفر بن عون عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن عبد الله بن المخارق عن أبيه المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه : إذا حدثناكم بحديث آتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى ، إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر تبارك الله ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقاتلهن حتى يجيء بهن وجهه الله عز وجل ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ وحدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا سعيد بن الجريدي عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار : إن لسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر لدويا حول العرش كدوي النحل يذكرون لصاحبهن والعمل الصالح في الآخرة ، وهذا إسناده صحيح إلى كعب الأحبار رحمة الله عليه ، وقد روي مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا موسى يعني ابن مسلم الطحان عن عون بن عبد الله عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «الذين يذكرون الله من جلال الله من تسيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، هن دوي كدوي النحل ، يذكرون بصاحبهن ، ألا يجب أحذكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به» وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف عن يحيى بن سعيد القطان عن موسى بن مسلم الطحان ، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبيه أو عن أخيه ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه به .

وقوله تعالى : ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : الكلم الطيب ذكر الله تعالى ، يصعد به إلى الله عز وجل ، والعمل الصالح أداء الفريضة ، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل ، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله ، فكان أولى به ؛ وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفعه الكلام الطيب ، وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعي والضحاك والسدي

والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد . وقال إياس بن معاوية القاضي ؛ لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل .

وقوله تعالى : ﴿والذين يمكرون يومهم﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب : هم المرءون بأعمالهم ، يعني يمكرون بالناس يومهم أنهم في طاعة الله تعالى ، وهم بغضاء إلى الله عز وجل يراءون بأعمالهم ﴿ولا يذكر الله إلا قليلاً﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون ، والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ، ولهذا قال تعالى : ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهي ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وقلنت لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غيب ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا يخفى عليه خافية .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة﴾ أي ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها . وقوله عز وجل ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل ﴿ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

وقوله عز وجل ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وما ينقص من عمره﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين ، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه ، أي ونصف ثوب آخر ؛ وروي من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير . يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، وإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالحق ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له ، فذلك قوله تعالى : ﴿ولا ينقص من عمره﴾ إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير . يقول : كل ذلك في كتاب عنده ، وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿ولا ينقص من عمره﴾ إلا في كتاب . قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام وقال عبد الرحمن في تفسيرها : ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا . وقال قتادة : والذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ إلا في كتاب . أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره . فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ ، وقال بعضهم : بل معناه ﴿وما يعمر من معمر﴾ أي ما يكتب من الأجل ﴿ولا ينقص من عمره﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً ، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه ؛ نقله ابن جرير عن أبي مالك ، وإليه ذهب السدي وعطاء الخراساني ، واختار ابن جرير الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان قال : سمعت ابن وهب يقول : حدثني يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سره أن يسطر له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» . وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الإيلي به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الوليد بن الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو سرح ، حدثنا عثمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله عن عمه أبي مسجعة بن ربعي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال «إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره ، فذلك زيادة العمر» . وقوله عز وجل ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ أي سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبفضيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع ، لا يخفى عليه شيء منها .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٍ سَابِغٌ شَرَابُهُمْ وَهَذَا مَلْحٌ أجاجٌ وَمَنْ كُلٌّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ . وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأناجر السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار والعمران والبراري القفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زعاقا مرة ، ولهذا قال ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مر . ثم قال تعالى : ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾ يعني السمك ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ كما قال عز وجل ﴿يخرج منها اللؤلؤ والمرجان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان .  
وقوله جل وعلا ﴿وترى الفلك فيه مواهر﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسمن الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره ، وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ولا يخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله جل وعلا ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، تذهبون أين أردتم ، ولا يمنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ورحمته .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿١٤﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه ، والنهار بضياؤه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات ، بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره ﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿ما يملكون من قطمير﴾ قال ابن عباس رضي الله عنها ومجاهد وعكرمة وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم : القطمير هو اللقافة التي تكون على نواة التمرة ، أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال تعالى : ﴿إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم ، لأنها جماد لا أرواح فيها ، ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي لا يقدرن على شيء مما تطلبون منها ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي يتبرعون منكم ، كما قال تعالى : ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿وقال تعالى : ﴿واخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا﴾ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ . وقوله تعالى : ﴿ولا ينبتك مثل خبير﴾ أي ولا يجبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا بحالة .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّبِعُوا أَمْرَ الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ  
إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكْنَا فَاِنَّمَا تَرْكُنَا لِنَفْسِنَاهُ . وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى بغيثه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي هو المنفرد بالغي وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشعره . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَى حِمْلِهَا ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباً أو ابناً ، كل مشغول بنفسه وحاله . قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَى حِمْلِهَا ﴾ الآية ، قال هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ، فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلط بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن إن لي عندك بدأ قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله ، وهو في النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني أي والد كنت لك ، فيشي خيراً ، فيقول له : يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها عما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنني أتخوف مثل ما تتخوف ؛ فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ؛ ثم يتعلق بزوجه فيقول : يا فلانة ، أو يا هذه أي زوج كنت لك ؟ فشني خيراً ، فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تبيها لي لعلني أنجو بها مما ترين ، قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ، ولكنني لا أطيق أن أعطيك شيئاً ، إني أتخوف مثل الذي تتخوف . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَى حِمْلِهَا ﴾ الآية ، ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جِازٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ رواه ابن أبي حاتم رحمه الله عن أبي عبد الله الزهراني عن حفص بن عمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة به . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهي ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ أي وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٢﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿١٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿١٤﴾  
 إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١٥﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿١٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿١٧﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٩﴾

يقول تعالى : كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق ويون كثير ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ وقال عز وجل ﴿ مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ فالؤمن بصير سميع في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها ، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، وظل من يجموم لا بارد ولا كريم .  
 وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والإتيان لها . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أي كما لا يتفجع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي إنما عليك البلاغ

والإنذار : والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً ونذيراً للكافرين ، ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أي وما من أمة خلقت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر ، وأزاح عنهم العليل ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وكما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمَنْ هَدَى اللَّهُ فَمَنْ هَدَى اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ حِصَّةٍ عَلَيْهِ الضَّلَالَةَ﴾ الآية ، والآيات في هذا كثيرة .  
وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات ﴿وبالزبر﴾ وهي الكتب ﴿وبالكتاب المبين﴾ أي الواضح البين ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾ أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءهم به ، فأخذتهم أي بالعقاب والنكال ﴿فكيف كان تكبير﴾ أي فكيف رأيت إنكارهم عليهم عظيماً شديداً بليغاً ، والله أعلم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا  
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ  
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى منها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفة الألوان من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ .  
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة ، مختلفة الألوان أيضاً قال ابن عباس رضي الله عنها : الجدد الطرائق ؛ وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي ، ومنها غرابيب سود . قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود ؛ وكذا قال أبو مالك وعطاء الخراساني وقتادة : وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا : أسود غرابيب ، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : ﴿وغرابيب سود﴾ أي سود غرابيب ، وفيها قاله نظر .

وقوله تعالى : ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب ، وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً ، فالتاس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهندودون ذلك ؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿واختلاف ألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ قال ﷺ : نعم صبغاً لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض ، وروي مسلماً وموقوفاً ، والله أعلم . ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للتعظيم التقدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير وقال ابن هبة عن ابن عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئاً ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل . وقال الحسن البصري : العالم من خشية الرحمن بالغيب ، ورجب فيما

رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية . وقال أحمد بن صالح المصري عن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد بن صالح المصري : معناه أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وإنما العلم الذي فرض الله عز وجل أن يتبع ، وإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا ، لا يدرك إلا بالرواية ، ويكون تأويل قوله : نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه . وقال سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن رجل قال : كان يقال العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بالله ؛ فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض ؛ والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض ؛ والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخش الله عز وجل .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ

﴿٢٦﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والإنفاق بما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً ، سرّاً وعلانية ﴿يرجون تجارة لئن تبور﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله ، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تحظر لهم ﴿إنه غفور﴾ أي لذنوبهم ﴿شكور﴾ للقليل من أعمالهم قال قتادة : كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول . هذه آية القراء . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان قال : إنه سمع دراجاً أبا السمع يحدث عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿إن الله تعالى إذا رضي عن العبد أثنى عليه بسبعة أصناف من الخير لم يعمله ، وإذا سخط على العبد أثنى عليه بسبعة أصناف الشر لم يعمله﴾ غريب جداً .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : ﴿والذي أوحينا إليك﴾ يا محمد من الكتاب وهو القرآن ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة بصدقها كما شهدت له بالتبويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿إن الله عباده لخبير بصير﴾ أي هو خير بهم بصير بمن يستحق ما يفضل به على من سواه ، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتُونَ

اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ومنهم مقتصد﴾ وهو المؤدي للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك المستحبات ويفعل بعض المكروهات ، ﴿ومنهم سابق بالخيرات يؤذن الله﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح وعبد الرحمن بن معاوية العتيبي قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني ، حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : «شفاعتي لأهل الكيأثر من أمتي» . قال ابن عباس رضي الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ ، وكذا روي عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما فمنهم ظالم لنفسه قال هو الكافر وكذا روى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير . وقال ابن أبي نجيج عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال : هم أصحاب المشأمة . وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقتادة : هو المنافق ؛ ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير ، كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر . [الحديث الأول] قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار أنه سمع رجلاً من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ قال هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي إسناده من لم يسم ، وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شعبة به نحوه . ومعنى قوله بمنزلة واحدة ، أي في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة .

[الحديث الثاني] قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو حمزة عن موسى بن عقبة ، عن علي بن عبد الله الأزدي عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذي يجسسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمستا فيها نصب ولا يمستا فيها لغوب» .

[طريق أخرى] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه - قال - فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة» ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد ، فجلس إلى جنب أبي الدرداء رضي الله عنه ، فقال : اللهم أنس وحشتي ، وارحم غربتي ويسر لي جليساً صالحاً ، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه ، لئن كنت صادقاً لانا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه ذكر هذه الآية ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾ ، فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله تعالى : ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ .

[الحديث الثالث] قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي ، حدثنا عمرو بن قيس عن ابن أبي ليلى عن أخيه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ «كلهم من هذه الأمة» .

[الحديث الرابع] قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عزيز ، حدثنا سلامة عن عقيل عن ابن شهاب عن عوف بن

مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : وأمتي ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يمحسون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحسون ويكشفون ، ثم تأتي الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون : لا إله إلا الله وحده ، يقول الله تعالى صدقوا لا إله إلا أنا أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده ، واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهي التي قال الله تعالى : ﴿وليحملن أثقالهن وأثقالاً مع أثقالهن﴾ وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة . قال الله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم لنفسه ، فهذا الذي يمحص ويكشف غريب جداً .

[أثر عن ابن مسعود] رضي الله عنه . قال ابن جرير : حدثني ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس عن عبد الله بن عيسى رضي الله عنه عن يزيد بن الحارث ، عن شقيق أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يمحسون حساباً يسيراً ، وثلث يمحسون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة : هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً ، فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ الآية .

[أثر آخر] قال أبو داود الطيالسي عن الصلت بن دينار بن الأشعث عن عقبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه﴾ الآية ، فقالت لي : يا بني هؤلاء في الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم ، قال : فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا ، وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى : ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ قال : هي لأهل بدونا ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال عوف الأعرابي : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار رحمة الله عليه ، قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ جنات عدن يدخلونها - إلى قوله عز وجل - والذين كفروا لهم نار جهنم ﴿ قال : فهؤلاء أهل النار ، رواه ابن جرير من طرق عن عوف به ثم قال : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عليه ، أخبرنا حميد عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال : إن ابن عباس رضي الله عنها سأل كعباً عن قوله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا - إلى قوله - بإذن الله﴾ قال : تماست منابهم ورب كعب ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ الآية ، قال أبو إسحاق : أما ما سمعت من ذي ستين سنة فكلهم ناج ؛ ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله . ورواه الثوري عن إسماعيل بن سميع عن رجل عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه بنحوه .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن علي - يعني الباقر - رضي الله عنها عن قول الله تعالى ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ فقال : هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . فهذا ما يسر من إيراد الأحاديث والأثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا ، فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق ، فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لطلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال رضي الله عنه : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ومن سلك طريقاً يطلب فيها علماً ، سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم

من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه به أخذ بحظ وافر ، وأخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث كثير بن قيس ، ومنهم من يقول قيس بن كثير عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في شرح كتاب العلم من صحيح البخاري ، والله الحمد والمنة ، ؛ وقد تقدم في أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال «يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي» .

جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّقُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٢﴾  
 وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٣﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَآيَمَسْنَا فِيهَا نِصَبٌ وَلَا نَمَسْنَا فِيهَا غُوبٌ ﴿٣٤﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أوتوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، ماوهم جنات عدن ، أي جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله عز وجل «يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً» كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» . «ولباسهم فيها حرير» ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا ، فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «من ليس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» وقال «هي لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة» . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السرحي ، أخبرنا ابن وهب عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ، وذكر حلي أهل الجنة فقال «مسورون بالذهب والفضة مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جرد مرد مكحولون» «وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا وأراحنا عما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم ، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» رواه ابن أبي حاتم من حديثه . وقال الطبراني : حدثنا جعفر بن محمد الفريابي ، حدثنا موسى بن يحيى المروزي ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي عن عبد العزيز بن حكيم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور ، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور» قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم السير من الحسنات «الذي أحلنا دار المقامة من فضله» يقولون الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل» «لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب» أي لا يمسننا فيها عناء ولا إعياء . والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب ، وكان المراد بنفي هذا وهذا عنهم ، أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ، والله أعلم ؛ فمن ذلك أنهم كانوا يذبون أنفسهم في العبادة في الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا في راحة دائمة مستمرة قال الله تبارك وتعالى : «كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية» .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْنُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ

﴿٣٥﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن

تَذَكَّرَ ۖ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٦﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء ، شرع في بيان ما للأشقياء ، فقال ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ كما قال تعالى : ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾ وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال ﴿وأما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون﴾ وقال عز وجل ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما تكونون﴾ فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ كما قال عز وجل ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون﴾ لا يفتر عنهم وهم فيه ملبسون﴾ وقال جل وعلا ﴿كلما خبت زدتهم سعيراً﴾ ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾ ثم قال تعالى : ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق .

وقوله جلت عظمته ﴿وهم يصطرحون فيها﴾ أي ينادون فيها يجارون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نوا عنه ، وأنهم لكاذبون فلهذا لا يبيهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قوله ﴿فهل إلى مرد من سبيل﴾ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي لا يبيهم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعذبتكم إلى ما نهيتم عنه ، ولذا قال ههنا ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم وجاءكم النذير؟﴾ أي أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن يتنفع بالحق لا تتعتم به في مدة عمركم ؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا ، فروي عن علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلما أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نغير بطول العمر قد نزلت هذه الآية ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم﴾ وإن فهم لابن ثمانى عشرة سنة ، وكذا قال أبو غالب الشيباني . وقال عبد الله بن المبارك عن معمر بن رجبل عن وهب بن منبه في قوله تعالى : ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم﴾ قال : عشرين سنة وقال هشيم عن منصور عن زاذان عن الحسن في قوله تعالى : ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم﴾ قال : أربعين سنة ، وقال هشيم أيضاً عن مجالد عن الشعبي عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل ، وهذه رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم﴾ أربعون سنة ؛ هكذا رواه من هذا الوجه عن ابن عباس رضي الله عنهما به ؛ وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم﴾ ستون سنة ، فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهي الصحيحة في نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت في ذلك من الحديث كما سنورده ، لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك ، لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره ، وقد روى أصح بن نباتة عن علي رضي الله عنه أنه قال : العمر الذي غيرهم الله به في قوله ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم﴾ ستون سنة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا دحيم ، حدثنا ابن أبي فديك ، حدثني إبراهيم بن الفضل المخزومي عن ابن أبي حسين المكي ، أنه حدثه عن عطاء هو ابن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال ﴿إذا كان يوم القيامة ، قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذي قال الله تعالى فيه ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكركم وجاءكم النذير﴾﴾ وكذا رواه ابن جرير عن علي بن شعيب عن إسماعيل بن أبي فديك به ، وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي فديك به ، وهذا الحديث فيه نظر لحال إبراهيم بن الفضل ، والله أعلم .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن رجل من بني غفار عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ﴿لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه﴾ وهكذا رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مطهر عن عمر بن علي عن معمر بن محمد الغفاري ، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿أعذر الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة﴾ ثم قال البخاري : تابعه أبو حازم وابن عجلان عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفزاري ، حدثنا محمد بن سوار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القادر أي الإسكندر ، حدثنا أبو حازم عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿من عمره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في

العمرة وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعاً عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن به .  
ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال «العمر الذي أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم ستون سنة» يعني «أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكر» وأما متابعة ابن عجلان فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك بن قرعة بسامرا ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عز وجل إليه في العمرة وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ به ، ورواه أحمد أيضاً عن خلف عن أبي معشر عن أبي سعيد المقبري .  
[طريق أخرى] عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال ابن جرير : حدثني أحمد بن الفرغ أبو عتبة الحمصي ، حدثنا بقة بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكتاني ، حدثني معمر بن راشد قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفاري يقول : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ «لقد أعذر الله عز وجل في العمر إلى صاحب الستين سنة والسبعين» فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : إن في رجاله بعض من يجب الثبوت في أمره لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري ، والله أعلم . وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا في التقص والمهرم ، كما قال الشاعر .

إذا بلغ الفتى ستين عاماً فقد ذهب المسرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العليل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث . قال الحسن بن عرفة رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك» وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد عن الحسن بن عرفة به . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وهذا عجيب من الترمذي ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى عن أبي هريرة حيث قال : حدثنا سليمان بن عمرو عن محمد بن ربيعة عن كامل أبي العلاء عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك» وقد رواه الترمذي في كتاب الزهد أيضاً عن إبراهيم بن سعيد الجوهري عن محمد بن ربيعة به ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد روي من غير وجه عنه هذا نصه بحروفه في الموضوعين ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصاري ، حدثنا ابن أبي فديك ، حدثني إبراهيم بن الفضل مولى بني مخزوم عن المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «معتك المنايا ما بين الستين إلى السبعين» وبه قال : قال رسول الله ﷺ «أقل أمتي سبعين» إسناده ضعيف .

[حديث آخر] في معنى ذلك . قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا إبراهيم بن هانيء ، حدثنا إبراهيم بن مهدي عن عثمان بن مطر عن أبي مالك عن ربعي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله أنبئنا بأعمار أمتك ، قال رسول الله ﷺ «ما بين الخمسين إلى الستين» قالوا : يا رسول الله فأبناء السبعين ؟ قال ﷺ «قل من يبلغها من أمتي ، رحم الله أبناء السبعين ، ورحم الله أبناء الثمانين» ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوي ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة ، وقيل ستين ، وقيل خمسا وستين ، والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله تعالى : «وجاءكم النذير» روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وأبي جعفر الباقر رضي الله عنه وقاتدة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا : يعني الشيب ، وقال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني به رسول الله ﷺ ، وقرأ ابن زيد «هذا نذير من النذر الأولى» وهذا هو الصحيح عن قتادة فيها رواه شبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول ، وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقول تعالى : «ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون» لقد جنتكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون» أي لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبستم وخالفتم ، وقال تعالى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» وقال تبارك وتعالى : «كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير» قالوا بلى قد جاءنا نذير \* فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير» . وقوله تعالى : «فدوقوا

فما للظالمين من نصير ﴿ أي فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم ، فما لكم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٣٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٨﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وإنه يعلم ما تكنه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر ، وسيجازي كل عامل بعمله . ثم قال عز وجل ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم . كما قال تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض فمن كفر فعليه كفره ﴾ أي فإنما يعود وبإل ذلك على نفسه دون غيره ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتًا ﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين ، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ، ارتفعت درجته ومنزله في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أُنزِلَتْ إِلَيْهِمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ وَمَنْ بَلَّغَ إِلَيْنَا عِدَّةَ الظُّلُمَاتِ بِعَظْمِهِمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ كُنَّا إِذْ نَسَىٰ عَنْكُمْ وَإِنْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطنير . وقوله ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التي يمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيها من القوة الماسكة لها ، فقال ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي أن تضطربا عن أماكنها ، كما قال عز وجل ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ ﴿ ولئن زلنا إن أمسكنا من أحد من بعده ﴾ أي لا يقدر على دوامها وإبقائها إلا هو ، وهو مع ذلك حلیم غفور أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر ، وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستتر آخرين ويفغر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنه كان حلماً غفوراً ﴾ .

وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً بل منكراً ، فقال : حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد ، حدثني إسحاق بن إبراهيم ، حدثني هشام بن يوسف عن أمية بن سهل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه الصلاة والسلام على المنبر قال : وقع في نفس موسى عليه الصلاة والسلام : هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله تعالى إليه ملكاً فأرقله ثلاثاً ، وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما ، قال : فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله له مثلاً أن الله عز وجل لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض ، والظاهر أن هذا الحديث ليس برفوع بل من الإسرائيليات المنكرة ، فإن موسى عليه الصلاة والسلام أجل من أن يجوز على الله سبحانه وتعالى النوم ، وقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز بأنه ﴿ المحيي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ﴾ وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

وقد قال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام ، قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعباً ، قال : ما حدثك ؟ قال : حدثني أن السموات تدور على منكب ملك ، قال : أفصدمته أو كذبت ؟ قال : ما صدقته ولا كذبت ، قال : لوددت أنك اقتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها ، كذب كعب إن الله تعالى يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود رضي الله عنه .

ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم قال : ذهب جنذب البجلي إلى كعب بالشام فذكر نحوه . وقد رأيت في مصنف للفقهاء يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلي سماه - سير الفقهاء - أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع عن وكيع عن الأعمش به ، ثم قال : وأخبرنا زونان يعني عبد الملك بن الحسين عن ابن وهب عن مالك أنه قال : السياه لا تدور ، واحتج بهذه الآية ، وبحديث ﴿إِنَّ بِالْمَغْرِبِ بَابًا لِلتُّوبَةِ لَا يَزَالُ مَفْتُوحًا حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ﴾ قلت : وهذا الحديث في الصحيح ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْأَمَمِ لَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾  
 اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلْنَ  
 اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلْنَ اللَّهُ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب ، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ ، أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل ، قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى : ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفة من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين \* أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ وكقوله تعالى : ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين \* فكفروا به فسوف يعلمون﴾ قال الله تعالى : ﴿فلما جاءهم نذير﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ما زادهم إلا نفوراً﴾ أي ما زادادوا إلا كفراً إلى كفرهم ؛ ثم بين ذلك بقوله ﴿استكباراً في الأرض﴾ عن اتباع آيات الله ﴿ومكر السيء﴾ أي ومكروا بالناس في صدمهم إياهم عن سبيل الله ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

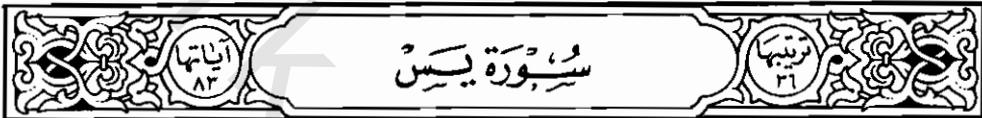
قال ابن أبي حاتم : ذكر علي بن الحسين ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه أن رسول الله ﷺ قال ﴿إياك ومكر السيء ، فإنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، ولهم من الله طالب﴾ وقال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به : من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها في كتاب الله تعالى : ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ﴿إنما بغيتكم على أنفسكم﴾ ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ وقوله عز وجل ﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي لا تنزير ولا تبدل ، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد ، والله أعلم .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ  
 فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ تَوَخَّأْتُمْ أَنَّ اللَّهَ النَّاسَ يَمَّا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ  
 ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَهُمْ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : قل يا محمد هؤلاء المكذبين بما جتهد به من الرسالة : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة

الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئاً ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض ﴿إِنَّه كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾ أي عليم بجميع الكائنات قدِير على مجموعها ، ثم قال تعالى : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السموات والأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كاد الجعل أن يعذب في حجره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ . وقال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى : ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب ، ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله ، فيجازي بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل المعصية ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ .  
آخر تفسير سورة فاطر والله الحمد والمنة .



قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسي عن الحسن بن صالح عن هارون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن ، وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : ولا يصح لضعف إسناده . وعن أبي هريرة رضي الله عنه : منظور فيه ، أما حديث الصديق رضي الله عنه فرواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول ، وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فقال أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ، حدثنا زيد هو ابن الحباب ، حدثنا حميد هو المكي مولى آل علقمة عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس» ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد عن هشام بن زياد عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ «من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له ، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له» إسناده جيد . وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقف ، حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني ، حدثنا أبي ، حدثنا زياد بن خيثمة ، حدثنا محمد بن جحادة عن الحسن بن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله عز وجل غفر له» .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال «البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً ، واستخرجت ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ من تحت العرش فوصلت بها - أو فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، وافرؤها على موتاكم» وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن عبد الأعلى عن معتمر بن سليمان به .

ثم قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمي عن أبي عثمان وليس بالنهدي ، عن أبيه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «اقرأوها على موتاكم» يعني يس ، ورواه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به ، إلا أن في رواية النسائي عن أبي عثمان عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكان قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة ، وليسهل عليه خروج الروح ، والله تعالى أعلم .